الزخارف الهندسية
في الفن السومري القديم

م.م غسان مردان
كلية الآثار/ قسم الآثار

مقدمة

تعدّ دراسة الزخارف الهندسية في الفن السومريّ القديم إلى درجة من الأهمية بمكان في الدراسات ذات العلاقة بآثار الفنون القديمة، إذ أولى الفنانون في العراق القديم عناية واضحة بتنفيذ الأعمال الفنية بصورة عامة، وكان تزويق سطوح تلك الأعمال بوحدات من الزخرفة الهندسية وفق قواعد بسيطة تتمثل بالتحويرات والتكرار. والزخارف الهندسية عبارة عن التكوينات التي يمكن تشكيلها من الروابط الخطية الناتجة عن تلاقي بعض الخطوط المستقيمة والمنحنية ويقودنا بالضرورة إلى دراسة تأريخها القديم منذ ظهورها الأول على الأعمال الفنية في الألف الخامس قبل الميلاد، عندما نفذ الفنان حينها تلك الخطوط البسيطة على سطوح أعماله الفنية. وقد تمّيزت هذه الزخارف بطابع التنوع من حيث إشغال واجهات المباني القديمة وأروقتها بتكوينات هندسية مختلفة ضمن قواعد وتقاليد فنية منتظمة تقوم عليها، وكان لتنفيذ هذه الزخارف أهمية واضحة في معالم الفن العراقي القديم عامة والفن السومري بشكل خاص، ومن هنا وقع اختياري على دراسة هذا الموضوع وتفصيل جوانبه كافة بدراسة أنواع الزخارف الهندسية في الفن السومري القديم استناداً على ما هو متوافر في الأدلة المكتشفة ، سواء كانت تلك الزخارف منفذة على شكل رسوم جدارية أو على المنحوتات أو على سطوح الفخاريات والأختام وغيرها. ومن جانب آخر يهدف البحث إلى تسليط الضوء على مهارة الفنان السومري في تنفيذ الأعمال الفنية والزخارف الهندسية عليها بدقة متناهية ناتجة عن تراكم الخبرة وتواصلها عبر الأجيال حتّى بلغت ذروتها في الفنون اللاحقة، ويمكننا الاستدلال على ذلك ببعض من النماذج المنفذة على المشاهد الفنية ذات العلاقة.

زخرفة الدوائر:

ظهرت زخرفة الدوائر بوصفها رمزاً على المشاهد الفنية منذ عصور مبكرة من تأريخ العراق القديم وكانت تمثل على الأغلب رمز قرص الشمس. وقد وجدُ نموذج لهذه الزخرفة منفذ على سطوح الأواني الفخارية العائدة إلى عصر حسونه لـ الألف السادس قبل الميلاد، واستمر تنفيذها على الأعمال الفنية في العصور التالية [1]. وتعدّ زخرفة الدوائر تعد من العناصر الهندسية التي لا تقل أهمية عن العناصر الزخرفية الأخرى، من حيث استخدامها وحدات زخرفية في تغطية السطوح الفنية[2].

ومن أشهر القطع الفنية المكتشفة نموذج مكتشف في مدينة أور. يمثل لوحة للعبة لعّلها الضامة التي عثر عليها ضمن مدفن مقبرة أور الملكية. صنعت من الخشب ورصعت خاناتها بفسيفساء وطعمت بأحجار اللازورد وأحجار جيرية وزينت بأصداف وقطع من العظم وثبت عليها بعجائن ملونة فضلاً عن القار، ومما يلاحظ على لوحة اللعبة السومرية هذه تنفيذ زخرفة الدوائر عليها، ما أضفى عليها زينة واضحة وهي من أكثر الزخارف الهندسية وضوحاً، ومن جانب آخر عمد الفنان السومري إلى إعطاء رونق جميل عليها، وهكذا نلاحظ براعة الفنان في تنفيذ تلك الزخارف [3]. (يُنظر الشكل 1). ومن الأمثلة السومرية الرائعة الأخرى أيضاً خنجر ذهبي عثر عليه في أور زخرف وطعّم بأشكال الدوائر الهندسية بدقة، في أعلاه ووسطه، وتعكس الزخارف المنفذة على هذا الخنجر براعة الفنان السومري واستخدامه مبدأ التناظر لإضفاء المزيد من الجمالية والزينة على عمله الزخرفي الدقيق[4]. (يُنظر الشكل 2).

زخرفة المثلثات:

يعدّ المثلث أحد عناصر الزخرفة الهندسية المنفذة على سطوح الأشكال الفنية، ويلاحظ شيوع استخدام هذا العنصر الزخرفي وانتشاره على الآثار النفيسة بأنواعها المختلفة [5]. ومن المشاهد الرائعة المنفذة عليها، آلة موسيقى شبيهة بالصندوق كانت مقدمة رأس ثور كشف عنه في مقبرة أور الملكية (محفوظ الآن في متحف بغداد) يلاحظ على سطح الآلة مشاهد فنية تغلب عليها زخارف المثلثات، ولا سيما على أوتاد الصندوق من أجل ملء الفراغات وإطفاء الزينة على المشهد الفني. (يُنظر الشكل 3) وهذا التطور الذي أحدثه الفنان آنذاك لم يكن وليد صدفة أو موهبة الفنان المنفذ فحسب بل كان حصيلة خبرة متراكمة في تنفيذ هذا النوع من الزخرفة الذي يتطلب من الفنان الاطلاع والدراسة الواسعة في التخطيط والهندسة[6].

زخرفة الأفاريز:

عرف هذا النوع من الزخارف منذ القدم، ونال مكانة رفيعة في الفن وأعطى الزخارف الهندسية تركيباً بنيوياً على زينة المشاهد الفنية، وقد استخدمت هذه الزخرفة في تأطير الأشكال والمشاهد النباتية والزخارف الآدمية والحيوانية على حدّ سواء[7].

ومن ذلك النموذج الذي مثل عليه مشهد لواء أور وهو انجاز فني متميز في الأصل نفذ على صندوق خشبي مزخرف من الجهات الأربع بعدة مشاهد ملونة وزاهية بالفسيفساء، وطعّم بصدف وعقيق أحمر وأحاط اللازورد إطاره الأسود المصنوع من القار، وهو محاط بالأفاريز الهندسية بين الجانب الأول والثاني والثالث، وتلاحظ الأفاريز الواحد منها فوق الآخر، وهي تفرز بين المشاهد في ثلاثة صفوف أفقية تصور الأحداث من الأسفل إلى الأعلى، وتشير تلك الأحداث بتصوير المركبات الحربية، إلى دور الآلهة في المعركة وتحقيق النصر، والمشاهد تمثل ظفر قوات لكش وبروز لواء أور في واجهة الحرب، ونفذت عليها مشاهد أخر تمثل لواء أور في واجهة السلام في ثلاثة صفوف أفقية أيضاً أحدها يصور الجنود وهم يحملون الضرائب إلى القصر، التي قدمها المنهزمون، ويلاحظ الملك وقد خلع عنه ثوبه وارتدى ثوباً مدنياً، وهو جالس يحمل بيده كأساً وهو يشارك المدعوين، وفي الطرف الأيمن تظهر مغنية تنشد يساندها عازف القيثارة، ومما يفيد موضوع بحثنا في هذا العمل الفني مدى براعة الفنان السومري في إدخال وتنفيذ نوع من الأفاريز في مادة الزخرفة الهندسية لتنظيم رؤية الأحداث المتسلسلة المعبرة من خلال الفصل بينها بالأفاريز فضلاً عن إضفاء الجمال والإبداع على المشاهد الفنية التي تقوم على ملء وإشغال المساحات بانتظام[8]. (يُنظر الشكل 4).

زخرفة المعين:

إن لزخرفة المعين رونقاً واضحاً ضمن الزخارف الهندسية المهمة، ويتسم هذا العنصر بجوانب مدورة أو محدبة تضفي على الشكل، وقد استخدم منذ القدم في الزخارف الهندسية السومرية، وما يميزه في هذا العصر استخدامه بوصفه زينة زخرفية منفذة على نماذج مختلفة من أجل القضاء على الرتابة وإظفاء العنصر الجمالي على الأعمال الفنية[9]. وقد شاع استخدام هذا العنصر في الفنون القديمة الأخرى كالفن المصري القديم [10] ومن الأعمال السومرية الرائعة المكتشفة بهذا الخصوص نماذج من الأعمدة المستديرة الضخمة، فقد كانوا يكسوها بطبقة من الفسيفساء لإعطاء مباني الطين سطحاً صلباً مزخرفاً، وكانوا يكسونها بقطع فخارية أو حجرية على هيئة مخروطات صغيرة يغرسون أطرافها المدببة ويجعلون من وقواعدها المستديرة بأنواعها المختلفة زخارف بين المثلثات ومعينات التي أعطت الرونق الجمالي لهذه الأعمال آنذاك[11] (ينظر الشكل 5).

زخرفة المربعات:

تعد المربعات من عناصر الزخرفة الهندسية المهمة والمألوفة في الفنون السومرية، بأشكالها الصغيرة والكبيرة وهي من أروع ما أنتجته الأيدي الفنية القديمة الماهرة. وهذه الزخرفة نفذت على أشكال فنية تنحصر بالتساوي في اتجاهات المشهد، من أجل ملء الفراغ وإعطاء الزينة[12]. ولهذه الزخرفة حضورٌ مميزٌ منذ العصور القديمة. وهناك الكثير من المشاهد التي تعبر عنها زخرفة المربعات ومن أبرز الأمثلة المكتشفة مجموعة فخاريات على شكل جرار وكؤوس وصحون وغيرها كشف عنها في العصر السومري القديم ، إذ تظهر سطوحها مزينة بزخارف هندسية مليئة بزخارف متعددة ومنها زخرفة المربعات التي تزين هذه الفخاريات، ضمن زخارف متعددة على شكل الأفاريز ومثلثات ودوائر أيضاً تعطي رونقاً جمالياً ولمسات رقيقة لسطوح هذه الفخاريات المتنوعة[13]. (يُنظر الشكل 6).

ومن المشاهد السومرية الرائعة مشهد نُفِّذ على سطح مزهرية مكتشفة في موقع خفاجي، زُيّن سطحها بزخارف، وطعّم بأشكال هندسية غزيرة ومنتظمة ومنفذة بدقة عالية من المهارة ، فضلاً عن تنفيذ زخرفة المربعات عليها وزخرفة المثلثات وزخرفة المعينات، وزوقت بألوان متنوعة وزاهية [14]. (يُنظر الشكل 7)، ومما يلاحظ على هذا النموذج تنوع الزخرفة الهندسية المنفذة واستخدمت أساساً في إشغال مساحات مختلفة وبدقة وهو ما يعبر عن قابلية الإبداع في إنتاج نماذج من تكوينات زخرفة المربعات وغيرها من التقنية والأسلوب. تنفيذ هذه الزخرفة ذات أهمية كبيرة فهي تشير إلى التطور والانجاز في التنفيذ الفني آنذاك[15].

زخرفة المستطيل:

زخرفة المستطيل من الزخارف الهندسية التي نفذت على سطوح الأشكال الفنية وفق أسلوب التكرار، كأرضية للعناصر الزخرفية وذلك بتقاطع الخطوط وتكوين المستطيلات لتزيِ سطوح الأشكال المراد زخرفته. وقد كان تعلم تصميم زخرفة عنصر المستطيل بحاجة إلى مسافة كبيرة على سطح الرسم المراد زخرفتها، إذ اشتهر هذا العنصر كغيره من العناصر الأخرى في بلاد سومر منذ القدم، وبرز في مشاهد فنية متنوعة[16]. ومن النماذج المنتخبة لزخرفة المستطيل مشهد ختم أسطواني تتداخل فيه زخرفة المستطيل مع كثرة الخطوط، تملأ المشهد من أجل القضاء على الرتابة في سطح الختم الاسطواني[17]. (يُنظر الشكل 8). وتلاحظ هذه الزخرفة في نسق واحد وثابت على المشاهد في كل وحدة من وحدات الزخرفة[18]، وبذلك استطاع الفنان التعبير عن رغباته بوضوح ومهارة فذة[19].

زخرفة الحلزونات:

تعدّ من أقدم الزخارف الهندسية التي نفذها الفنان في العصور القديمة، إذ وجدت على معظم المخلفات الأثرية القديمة بوصفها عنصراً زخرفياً دقيقاً، نفذت بشكل خطوط بسيطة ومتوازية ومتتابعة أشبه بالحزوز الصغيرة والكبيرة، ومن ثم انتشر استخدامها بشكل واسع في العصور اللاحقة[20].

ومن الأمثلة الرائعة التي تعكس زخرفة الحلزون السومرية مشهد ختم أسطواني يعود تأريخه إلى عصر جمدة نصر والوركاء وهو مزخرف بزخرفة الحلزون الهندسي نفذ هذه الزخرفة الفنان السومري آنذاك [21]. (يُنظر الشكل 9) ويلاحظ في هذه الزخرفة قيام الفنان السومري باستخدام عنصر التكرار لكي يملأ السطح الخارجي فضلاً عن إضفاء عنصر الجمال عليها، وتقوم هذه الزخرفة على أساس نقش بسيط التركيب ، إذ تبدو الزخارف الحلزونية الهندسية بصورة مترابطة[22]. وتنفيذ هذا النوع من الزخرفة يرقى بأصوله إلى الفنون القديمة المنفذة في عصور ما قبل التاريخ، ومن ثم استمر تنفيذه في الفنون السومرية والأكدية والبابلية والآشورية بشكل واسع إلى جانب انتقاله إلى الفنون المجاورة كالفن المصري والفن الإغريقي والروماني والبيزنطي، ومن ثم إلى الفن العربي الإسلامي[23].

الاستنتاجات:

يتبين مما سبق عرضه أنَّ للزخارف الهندسية أثرها الواضح في الفن السومري القديم، ويمكننا تدوين عدد من الاستنتاجات حول ذلك، وعلى النحو الآتي:-

1 – إن دراسة موضوع عناصر الزخرفة الهندسية يقودنا بالضرورة إلى معرفة أنواع الزخارف الهندسية في الفن السومري القديم وأصالتها ومدى أهميتها في الفن العراقي القديم.

2 – استخدمت هذه الزخارف لملء المساحات على الأعمال الفنية، ومن أجل القضاء على الرتابة، وسد الفراغات على السطوح ضمن قواعد وتقاليد فنية منتظمة.

3 – أظهرت هذه الدراسة مهارة الفنان السومري في تنفيذ أعمال الزخرفة نتيجة تراكم الخبرة وتواصلها عبر الأجيال.

4 – إن الزخارف الهندسية قيد الدراسة ظهرت بتنوعات أقل من زخارف الحيوان والنبات؛ لأنها تعتمد نسبياً على الخليط القليل للخطوط المستقيمة والمتعرجة أكثر مما تعتمد على التنوع غير المنتهي للأشكال بما أنها قائمة على اعتبارات منطقية.

5 – عني الفنان السومري بالتكوين العام للأشكال الهندسية وتنفيذ الزخارف عليها بدرجة عالية من الدقة والتنسيق وتنظيمها وفق قواعد ثابتة تعتمد على التناظر والتكرار.

6 – عبر الفنان السومري عن إحساسه المرهف ضمن معانٍ سامية تتصل برقي فكره ونتاجاته الفنية شكلاً ومضموناً من خلال جمال البهاء وحسن الفعل.

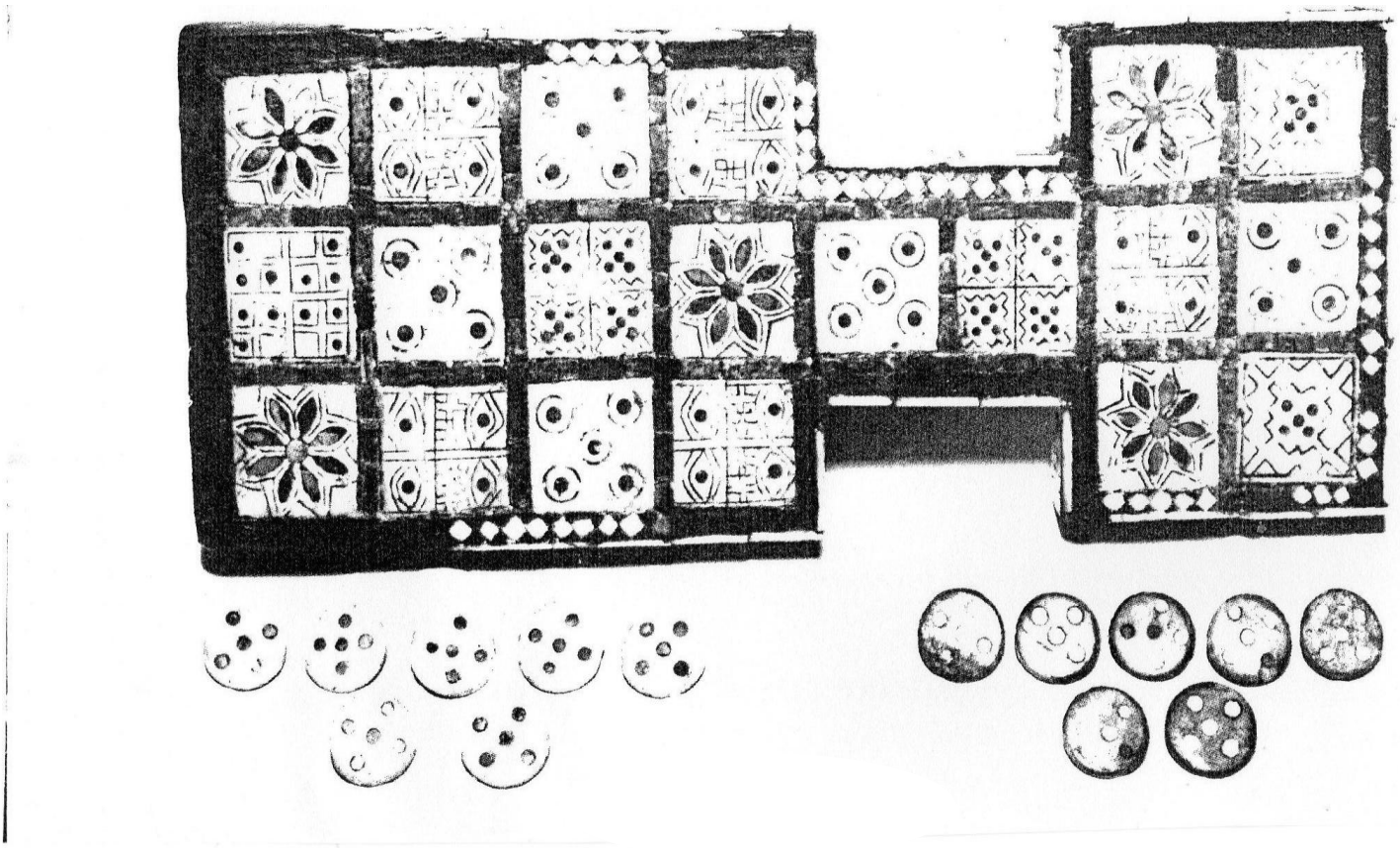

الشكل (1)

مأخوذ من: عكاشة، ثروت، المصدر السابق ، ص216 .

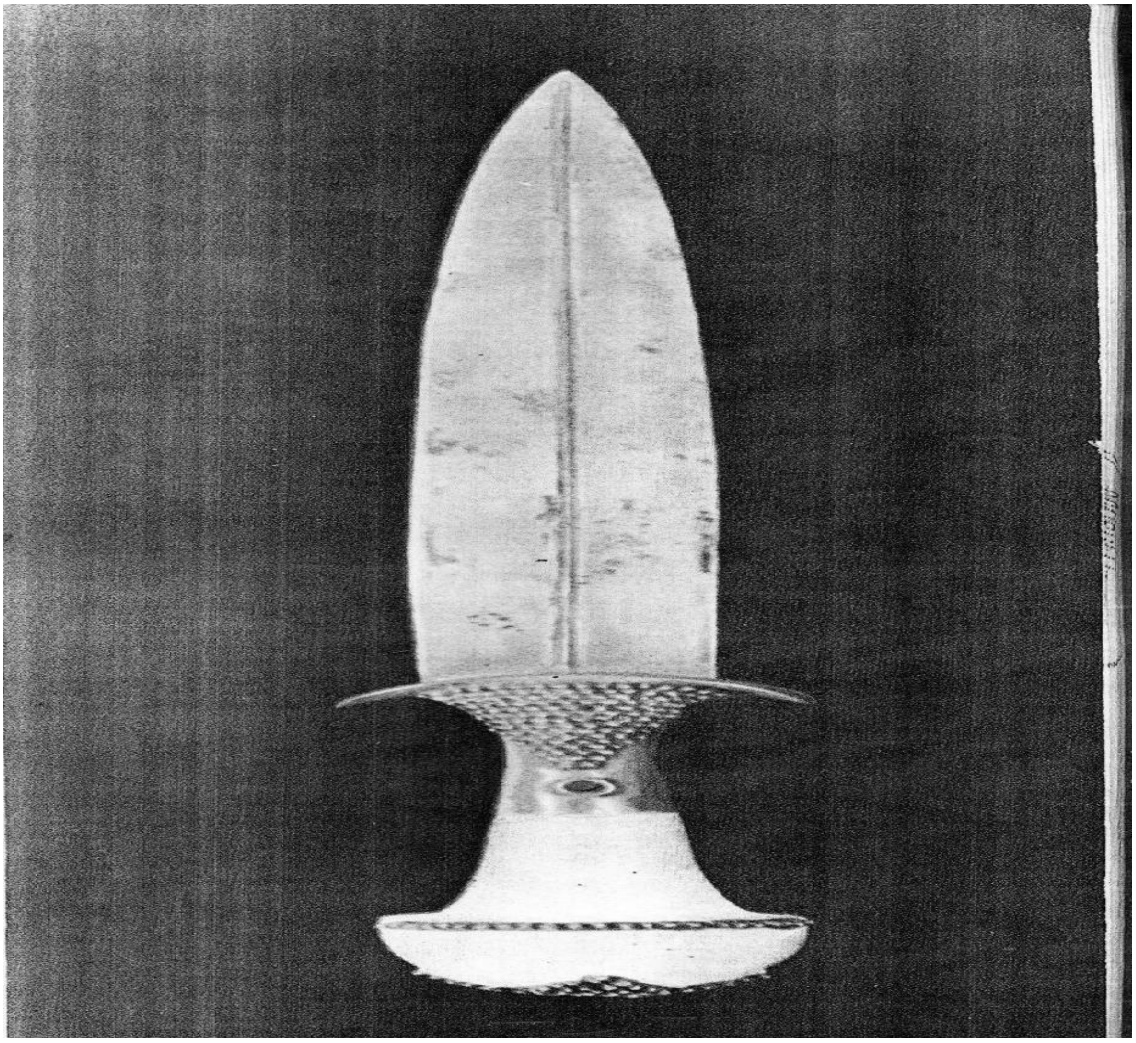

الشكل (2)

مأخوذ من: ستين، لويد، المصدر السابق، ص103 .

الشكل (3)

مأخوذ من : Arnuard, D, op. cit. P. 36

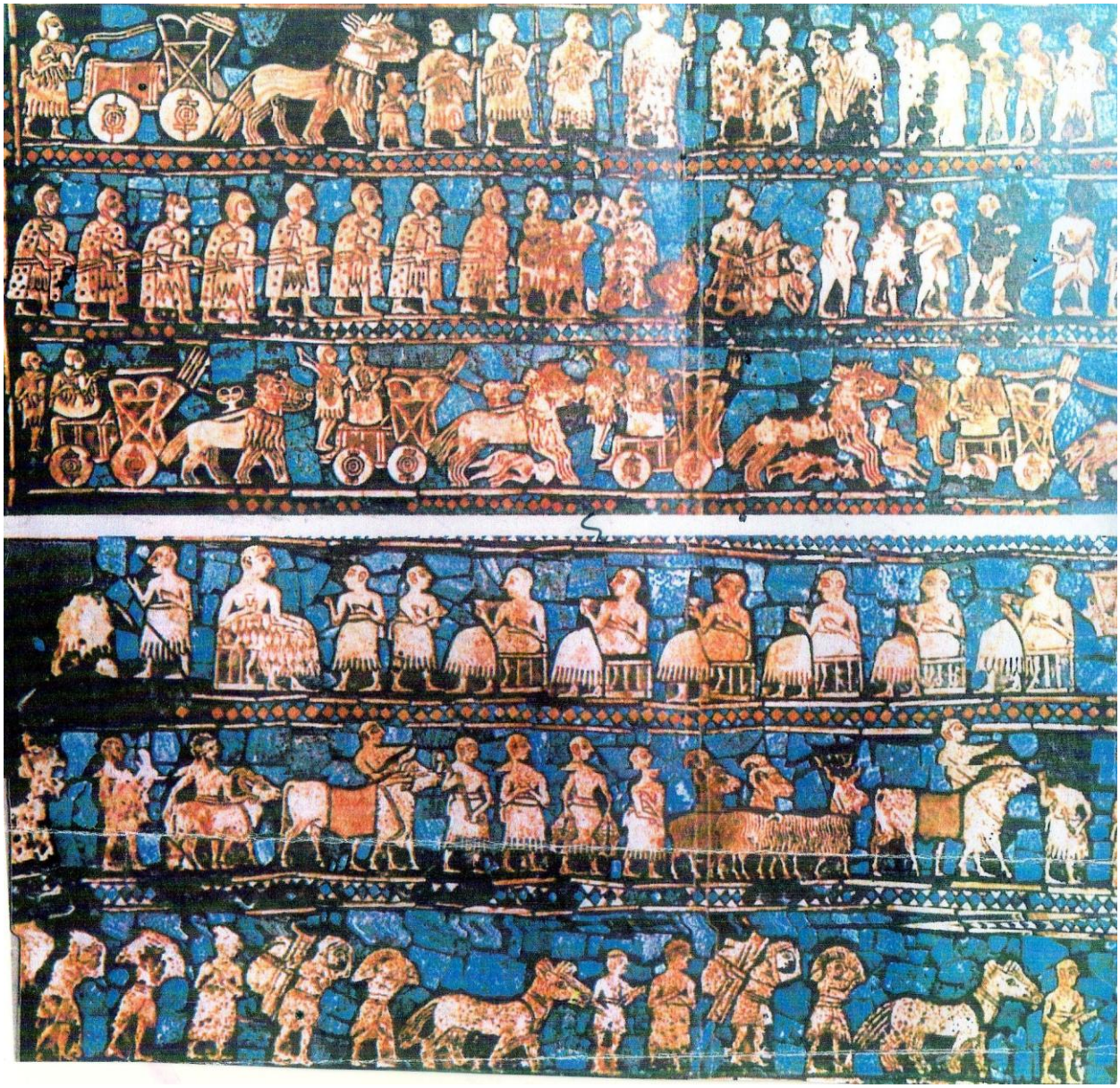

الشكل (4)

مأخوذ من: Frankfort, H. op. cit. P. 63

الشكل (5)

مأخوذ من : الجادر: وليد، المصدر السابق، ص337.

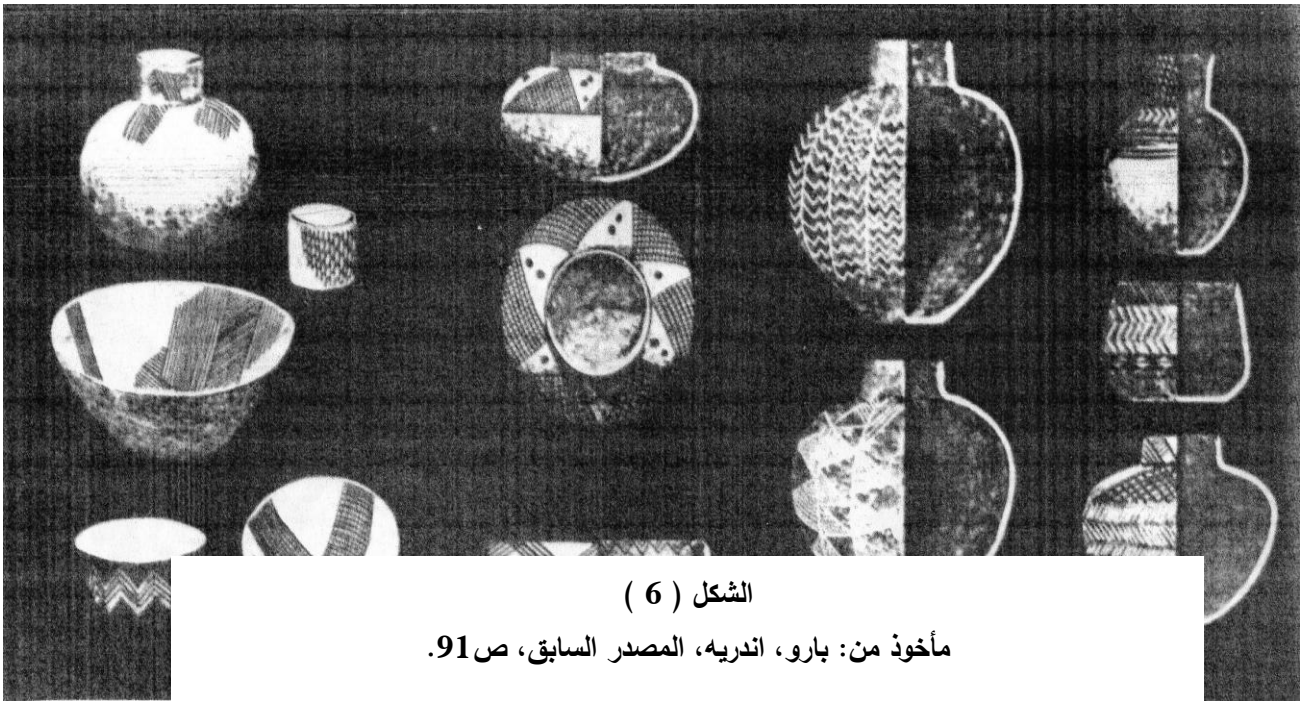

الشكل (6)

مأخوذ من: بارو، اندريه، المصدر السابق، ص91.

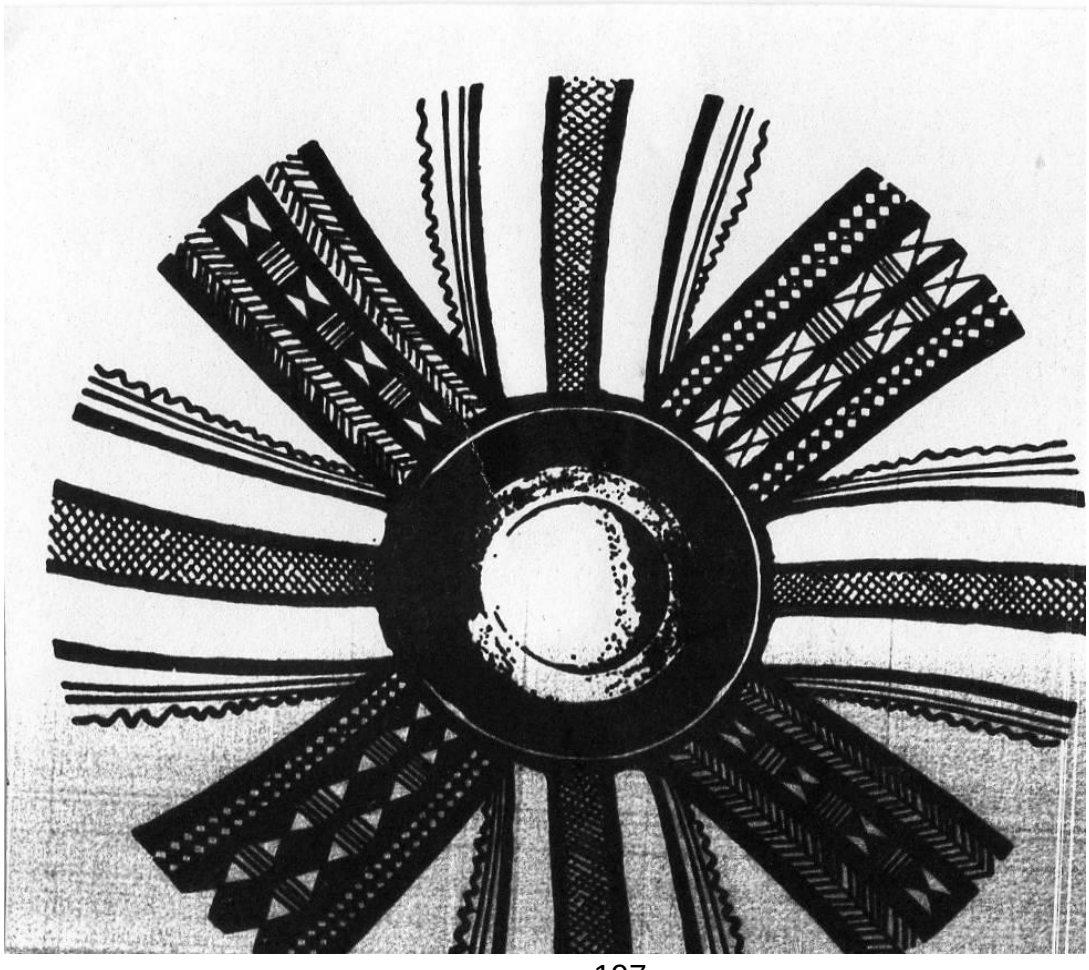

شكل (7)

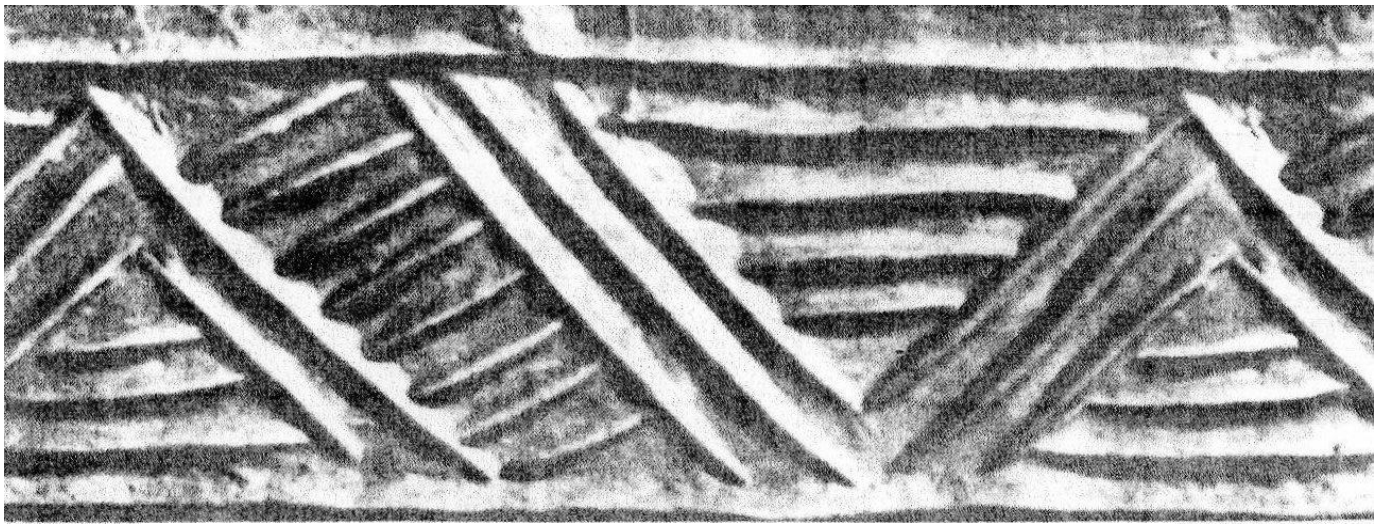

الشكل (8)

مأخوذ من : Smith, W, S. op. cit. P. 136

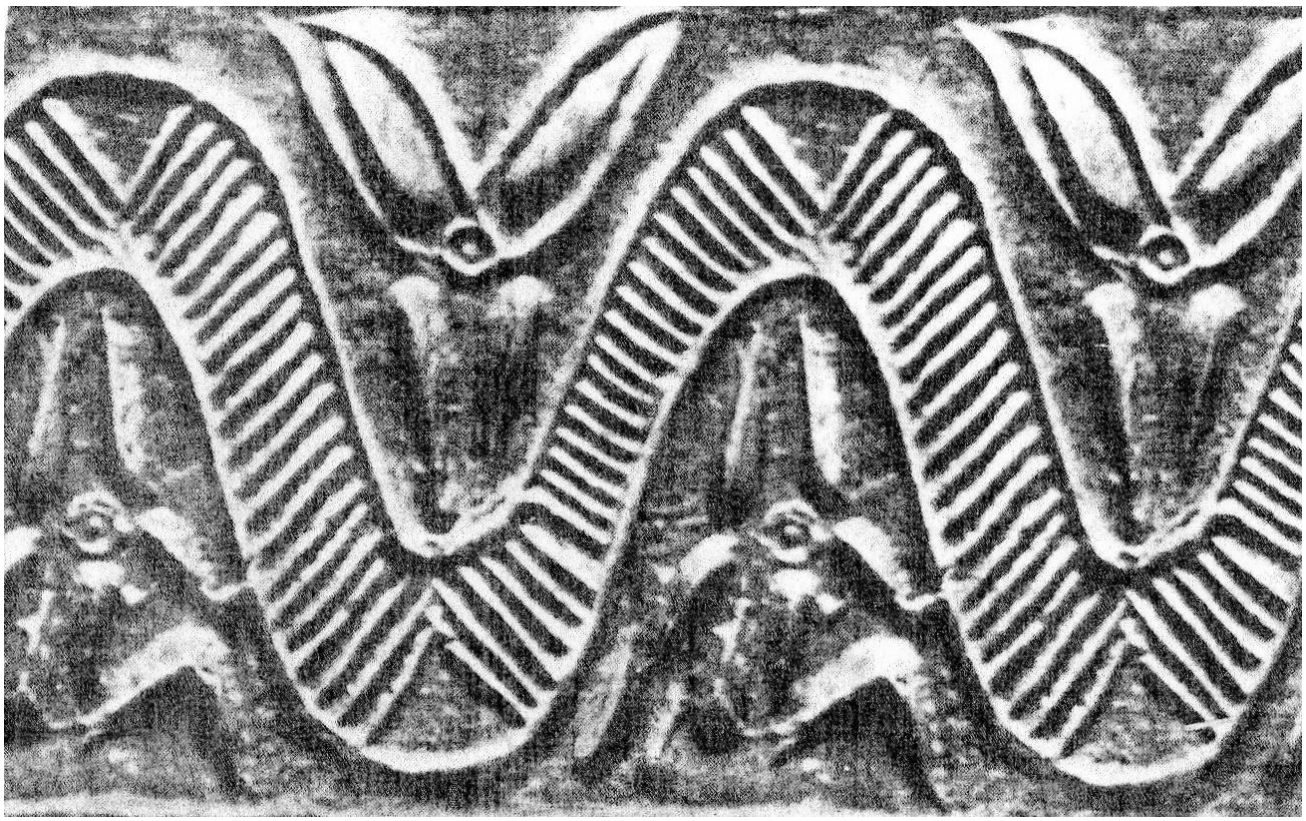

Abstract

Ornamentations in Ancient Sumerian Art are very important in studies related to ruins of ancient arts. Artists in ancient Mesopotamia have paid a great attention in performing artistic. It was very necessary decorated the surfaces of these works with certain forms of ornamentations represented by manipulation and repetition. Ornamentations are forms that can be shaped of linear lings that can be resulted from crossing straight and curve lines. Giving details about ornaments leads us to study our ancient history Since it first came into being 5000 BC.

ثبت المصادر

(1) الشاكر، فاتن فاضل موفق، رموز أهم الآلهة في العراق القديم، دراسة تاريخية دلالية، رسالة ماجستير غير منشورة، الموصل، 2002، ص 170.

(2) محمد، حامد جاد، قواعد الزخرفة، بغداد، 1986، ص 103.

(3) عكاشة، ثروت، تاريخ الفن العراقي، سومر وبابل وآشور، بغداد، 1967-1968، ص215.

(4) سيتن، لويد، فن الشرق الأدنى القديم، ترجمة محمد درويش، بغداد، 1988، ص 102.

(5) Arnuard, D, In Scriptions for Lamma, Sumer.Vol. 34.1978. p.39.

(*) هذه الآلة الموسيقية مطعمة بالذهب ومربوط عليها أشرطة ذهبية عريضة الشكل، وحواشيها السفلية مزينة بأسلاك من الذهب ومن داخل الآلة رباط يربط حواشيها، أيضاً مطعمة بصدف ومزينة بالحجارة الكريمة، وقد زينت أذني الثور ضفائر من الشعر المتموج، وذي خصلات متموجة تُكون لحية عريضة، وعيناه مطعمتان بحجرتين كريمتين، وقرنان من الذهب الخالص يأخذان شكلاً مقوساً هلالياً ويبرز في هذا المشهد نتوءات بارزة وهذا يعكس مهارة الفنان السومري في إبداعه نماذج فنية رائعة. للمزيد ينظر:

(5) Sasson, Jack, M, Civilizations of the Ancient Near East,1995.p 370.

(6) Ibid, P 374.

(7) Frankfort, H. The Art and Architecture of the Ancient Orient, London, 1961, p. 24.

(8) Van Buren, E, Douglas, symbols of the Gods in Mesopotamian Art, Roma,1945.p.28.

(9) Ibid, P. 23.

(10) عكاشة ، ثروت ، المصدر السابق ، ص116.

(11) Stromenger, E," the Art Mesopotamia".London,1964.p.256.

(12) بارو، اندريه، سومر فنونها وحضارتها، ترجمة وتعليق د. عيسى سليمان وسليم طه التكريتي، بغداد، 1977، ص 90.

(13) مورتكات، انطوان، الفن في العراق القديم، ترجمة وتعليق، د. عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، بغداد، 1975، ص 61.

(14) Stromenger, E, op. Cit. p. 366.

(15) Smith, W. S. Ierconnection in the Ancient Near East, (New York), 1965, p. 118.

(16) بارو، اندريه، المصدر السابق، ص136.

(17) مورتكات، انطوان، المصدر السابق، ص 76.

(18) Baumann, Hans, The Land of Ur, London, 1969. p. 77.

(19) Parrot, A, Archaologie nesopotaninne LesEtapes, (paris,1946). p.80.

(20) بارو، اندريه، المصدر السابق، ص 136.

(21) Frankfort, H, op. cit, p. 24.

(22) Ibid, p. 27.